الآخر بين خطاب الكراهية والقبول في النصوص الأدبية المعاصرة

د. وسيلة بكيس

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

wassila.bekkis@gmail.com

الملخص

يثير دال "الآخر" التباسات فكرية وإشكالات عديدة، فإذا كان هذا الآخر هو المختلف عني؛ فهو الذي لا يشكلني، وهو الذي لا أكونه، والذي لا أملكه، فقد يكون مغايرا على مستوى الجنس، وقد يكون مغايرا على مستوى الفكر، وقد يكون مختلفا ثقافيا أو اجتماعيا أو دينيا، أو حتى سياسيا وجغرافيا، لأن مفهوم "الآخر" نسبي ومطاط، فقد يشير الآخر إلى كل ما اختلف عن الذات في الجنس، الطبقة، والمجتمع، والديانة.. وغيرها. فالذكر يمثل الآخر بالنسبة للأنثى، والفرد للجماعة، والفقير للغني، والسيد للعبد وهكذا...

وعلى الرغم من أن التعايش مع الآخر ضرورة حتمية؛ لذا يستوجب علينا إزاء ذلك إعادة بناء مفهوم "الأنا والآخر" بدرجة عالية من الوعي الفكري المعاصر، الذي يستوعب التنوع بين الأنا والآخر،ويمكن القول إن أفكارنا وممارستنا عقائدنا ولغتنا لا تصبح لها دلالة ومغزى ولا تؤدي وظائفها إلا بوجود هؤلاء الآخرين المختلفين عنا. فجذور التفكير في ذلك بدأت منذ الخوض في مشكلة العلاقة بين "الأنا" و "الآخر" حيث كان لدى الفلسفة اليونانية وعي باختلاف بعضها عن بعض، ويمكن أن نلمس أثر ذلك من خلال التشريعات والقوانين التي كانت تنظم علاقة "الأجنبي" بمواطني البلاد أنذاك، فلم يكن لديه الحق في تدبير الشؤون العامة للمدينة، ولا الاعتراض عن قوانينها. كما تظهر إرهاصات "الميثولوجيا" و"المسرح" لدى اليونان؛ حيث كان يُنظر إلى الآخر المختلف دينيا كغريب أو مشوش على وحدة المدينة، لذا فإن الأدوار التي ألصقت به كلها كانت هامشية، وتدعو للحيطة والحذر ولقد استعملت كلمة "إرهابي" منذ ما يربو على ثلاثين قرنا من مسرحيات (أخيل وأوريبيد) للدلالة على الآخر. وعلى الرغم من أن "فلسفة الغير" تمتد إلى ما قبل بداية الكتابة، فإن التقعيد الحقيقي لها قد تأخر حتى حدود الأزمنة الحديثة، في القرن التاسع عشر، وقد ازداد الوعي بمسألة الغير خلال القرن العشرين على إثر تنامي مظاهر الحقد والكراهية والتمييز العنصري بين الشعوب. فبينما كان يتجه العالم نحو صنع "كونية مشتركة" لازالت مجتمعات عريقة غارقة في أسطورة الدم الطاهر، وأسطورة الرجل الأبيض، وأسطورة الشعب الآري أو السامي، وأسطورة شعب الله المختاروغيرها، من الأساطير التي سيّرت البحث الحقيقي عن "**الآخر الديني**" مناحي متفرقة، وأدخلته متاهات أصبح الخروج منها عسيرا، خاصة في ظل تشابك المفاهيم وتنامي الاختلافات وكثرة الاتجاهات.

الكلمات المفتاحية: الآخر، الكراهية، القبول، الآخر الديني، النص الأدبي.

The other between hate speech and acceptance in contemporary literary texts

Abstract

Many conceptual difficulties and issues are raised by the "other" symbol. If this other is different from me; he who does not constitute me, and he who I am not, and who I do not possess, he may be different on the level of gender and thought, and it may be different culturally, socially, religiously, or even politically and geographically, because the concept of the "other" is relative and elastic. The other might relate to something that is different from oneself in terms of gender, class, society, religion, and so on. The male stands in for the female, the individual stands in for the group, the poor stands in for the affluent, and the master stands in for the slave, and so on.

Although coexisting with the other is unavoidable, we must recreate the notion of "I and the other" with a high level of modern intellectual awareness, that accommodates the variety of the ego and the other. The roots of this thinking go back to delving into the problem of the relationship between the "ego" and the "other". where Greek philosophy was aware of the differences between them, and we can see the impact of this through the legislation and laws that were regulating the relationship of the "foreigner" with the citizens of the country at the time. He shall not have the authority to oversee the city's general affairs or to oppose to its laws. It also demonstrates the precursors of "mythology" and "theatre" in Greece; where the other, religiously different. was seen as alien or disturbing the unity of the city, the roles associated with it were all marginal and called for caution, and the word "terrorist" has been used in the plays for more than thirty centuries to denote the other (Achilles and Oribid). Although the "philosophy of others" predates the beginning of writing, its real development was delayed until the limits of modern times, in the nineteenth century, and awareness of the issue of others increased during the twentieth century in response to growing manifestations of malice, hatred, and racial discrimination between peoples.While the world was moving toward a "common universality," ancient societies were still engulfed in myths such as the myth of pure blood, the myth of the white man, the myth of the Aryan or Semitic people, the myth of God's chosen people, and others. among the myths that facilitated the real search for the "religious other" in separate ways and entered into labyrinths that have become difficult to escape, especially given the intertwining of concepts, the growth.

Keywords:The "Other", Hate Speech, Acceptance, the religious other, the literary text.

❖ تقديم

فتح الاهتمام بالآخر العديد من الجبهات، تأسيسا على التنوع الديني والثقافي والحضاري بين مختلف الشعوب، وبناء على طبيعة الرؤية التاريخية والرمزية التي تحملها كل "أنا" تجاه الآخر المختلف عنها دينيا، وطبيعة العلاقة التي تربط كل ديانة أو طائفة أو جماعة بغيرها، وقد كانت هناك عوامل كثيرة لتأجيج مختلف الصراعات بسبب الصياغات المتعسفة التي تنظم علاقة الفرد المسلم بغيره من المسيحي واليهودي والبوذي والشيعي.. وغيره.

إذا ما اتجهنا إلى النصوص الأدبية العربية نبحث فيها عن صورة الآخر الديني وكيف تجلت هذه الصورة متأرجحة بين القبول والكراهية، فإنه لزاما أن ننطلق من التساؤلات التالية:

كيف حضر الآخر الديني في المدونات السردية العربية المعاصرة؟ كيف تمثّلت الروايات العربية صورة اليهودي؟ هل ابتعدت عن الصورة النمطية المتوارثة عن اليهودي/ المسيحي في المخيال العربي؟ هل ثمّة تغيرات في نمط الصورة اليهودي/ المسيحي أم في تلقيها؟ ماهي القواعد التي بموجبها يتم الاعتراف بهذا الآخر؟ هل تمكن الروائيون العرب من إضاءة الواقع المظلم والتألق في سرد الآخر؟ إلى أي مدى شكلت هذه الشخصيات رمزية الصراع الحضاري مع الآخر؟ لذا انطلق البحث ليرصد صورة اليهودي على . وجه الخصوص . في الروايات العربية على اختلاف بيئاتها، وتبيان التحولات التي أصابت هذه الصورة.

يمكن القول إن جذور التفكير في مفهوم "الآخر " كانت قد بدأت منذ بدايات التفكير الفلسفي، والخوض في مشكلة العلاقة بين "الأنا" و "الآخر" بدءً من "الفلسفة اليونانية" فلقد كان لديها وعي باختلاف بعضها عن بعض، ويمكن أن نلمس أثر ذلك من خلال التشريعات والقوانين التي كانت تنظم علاقة "الأجنبي" بمواطني البلاد أنذاك، فلم يكن لديه الحق في تدبير الشؤون العامة للمدينة، ولا الاعتراض عن قوانينها. كما تظهر إرهاصات فلسفة الغير في "الميثولوجيا" و"المسرح" لدى اليونان؛ حيث كان يُنظر إلى الآخر كغريب أو مشوش على وحدة المدينة، لذا فإن الأدوار التي ألصقت به كلها كانت هامشية.[1] وتدعو للحيطة والحذر ولهذا يمكن القول مع محمد بهاوي: "إن كلمة "إرهابي" قد استعملت منذ ما يربو على ثلاثين قرنا من مسرحيات (أخيل وأوريبيد) للدلالة على الآخر. وعلى الرغم من أن "فلسفة الغير" تمتد إلى ما قبل بداية الكتابة، فإن التقعيد الحقيقي لها قد تأخر حتى حدود الأزمنة الحديثة، وبالضبط مع أعمال "هيغل" في

1ينظر: محمد بهاوي: في فلسفة الغير، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2013، صص 5، 6.

القرن التاسع عشر، إذ بعده مباشرة اتجه عموم الفلاسفة إلى فحص هذه الذات التي يمثلها كل واحد منا، بالنظر إلى أننا نعتبر "أشخاصا أو ذواتا" وكذا "أغيارا". وقد ازداد الوعي بمسألة الغير خلال القرن العشرين على إثر تنامي مظاهر الحقد والكراهية والتمييز العنصري بين الشعوب. فبينما كان يتجه العالم نحو صنع "كونية مشتركة" لازالت مجتمعات عريقة غارقة في أسطورة الدم الطاهر، وأسطورة الرجل الأبيض، وأسطورة الشعب الآري أو السامي، وأسطورة شعب الله المختار"[2]وغيرها من الأساطير التي سيّرت البحث الحقيقي عن الغير والآخر مناحي متفرقة، وأدخلته متاهات أصبح الخروج منها عسيرا، خاصة في ظل تشابك المفاهيم وتنامي الاختلافات وكثرة الاتجاهات.

1. الآخر الديني مفاهيم ورؤى

يثير دال الآخر التباسات فكرية وإشكالات عديدة، فإذا كان هذا الآخر هو المختلف عني؛ فهو الذي لا يشكلني، وهو الذي لا أكونه، والذي لا أملكه، فقد يكون مغايرا على مستوى التجنس، وقد يكون مغايرا على مستوى الفكر، وقد يكون مختلفا ثقافيا أو اجتماعيا أو دينيا، أو حتى سياسيا وجغرافيا، لأن "مفهوم الآخر نسبي ومطاط، فقد يشير الآخر إلى كل ما اختلف عن الذات في الجنس، الطبقة، المجتمع، فالذكر يمثل الآخر بالنسبة للأنثى والفرد والجماعة والفقير والغني والسيد والعبد..."[3]

أما عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع على وجه التحديد، يتم استخدام مقولة "الآخر The(other) "على وجه العموم للإشارة إلى أي شخص لا أكونه "أنا" فالأخر إن كان فعلا يحددني باعتباره الدال الأساسي لأي شيء لا أكونه ولا يخصني، فإن النظريات النفسية فيما بعد شددت على أن الذوات يتم تشييدها عن طريق اكتساب القوة للتعبير عن الرغبات والاحتياجات، ويتم ذلك من خلال اللغة عبر الآخر فهو دال أساسي لأي شخص لا تكونه الذات، وأن اكتشاف الآخر يتوازى مع اكتساب أو امتلاك القدرة على أن نتكلم ونميز بين "أنا (I) " و"أنت (You)" تلك القدرة التي تكون متساوية مع اكتساب أو امتلاك الكيان أو الهوية الاجتماعية (Social Identity)"[4]وأما مفهوم الآخر(other) أو الآخروية (otherness) في "منظور علم النفس فيشير إلى مجموعة من السمات/السلوكات الاجتماعية والنفسية والفكرية التي ينسبها فرد أو جماعة

2المرجع نفسه،صص6، 7.

3 سعد فهد الذويخ: صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي، إربد عالم الكتب الحديث، 2009، مقدمة الكتاب.

4 ينظر، مصطفى بيومي عبد السلام، وجوه الآخر قراءة في رواية الحب في المنفى لهاء طاهر، تمثيلات الآخر في الرواية العربية، أعمال النادي الأدبي بالباحة، المملكة العربية السعودية، أكتوبر 2010، ص 107.

ما إلى الآخرين مما يحيل إلى أن الآخر حاضر في المجال العام للهوية"[5] هذاالآخر الذي ليس هو أنا، وأنت لستَ أنا. وبهذا تُحدّد (الأنا الأنت) بالآخر، الذي ليس هو أنا، وتحدّد "الآخر" الذي هو (أنت) بليس هو (أنا) فيصبح الآخر هو ما يحددني أنا كأنا"[6] وإذا جاز لنا نستعير عبارة أنا جيشوقا السابقة نقول: إن المختلف هو "الكينونة الخاصة" وسواء أكانت تلك الكينونة خاصة بالذات أم الغير، وسواء أكان هذا الغير هو أنا أم غيري، فإنه لكي ينكشف ينبغي أن يكون هناك اهتمام به لا بالذات فقط، "ليظهر الآخر كعلامة بسيطة على استغرابي، فدهشتي وتعجبي واستغرابي من الآخر أو الغير، علامة غيريته أو اختلافيته. والمختلف(divers) هو كل ما يسمى إلى يومنا هذا أجنبيا وغير مألوف، وغير منتظر ومفاجئ وغامض"[7] أي أن الذات "لا ترى

(الآخر) إلا من خلال منظور ما تسترجعه الأنا، إلا في ضوء ما أدركته في الآخر بالأنا، والعكس صحيح، ولعل هذا ما يجعلنا نقول إن الآخر: عبارة عن مقوم جوهري من المقومات، من حيث أنها لا تكون كذلك إلا من خلال "الآخر" ولا تتعرف على ذاتها إلا عبر ذلك الآخر؛ بمعنى أنني لكي أكون موجودا بوصفي أنا يجب أن أجد (Trouve) آخر"[8] في حين يعتبر كل (أنا) نسبي آخر بالنسبة إلى ما عداه؛ فكل أنا من الأنماط التي سبق رصدها (آخر) بالنسبة إلى غيره؛ وبذا فإن مفهوم (الآخر) مفهوم علاقي لا يتحدد إلا بغيره، ويمثل (أنا) و(آخر) من شيء واحد، أو مغاير"[9]ولهذا وجدنا حالنا مطالبون بالتساؤل: من هو الآخر؟ كما أننا مطالبون "بمحاولة التحديد الموضوعي لما هو غير محدد، مقارنة مالا يمكن مقارنته، فلو كان هناك شخصان، فقط، في العالم، لما كانت حاجة محكمة إلى العدل، لأننا سنكون مسؤولين من أجل الآخر وأمامه،[10]حتى نصل إلى علاقة متكاملة مع الآخر ويصبح مبدأ هذه العلاقة أخلاقيا قبل كل شيء.

كما يمكن الاستئناس بالمفهوم اللغوي لتقرير الاختلاف أم المطابقة، حيث نجد صاحب اللسان يذهب إلى تقرير المطابقة أو المساواة . على الأقل . بين اللفظين على أساس التحديدات اللغوية، أما لفظ

5أفاية محمد نور الدين، الغرب المتخيل، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ط1، ص 17.

6 حمودة إسماعيلي، الأنا والآخر، نقد الفكر الاجتماعي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2015، ص8.

7 عبد النبي ذاكر، الصورة.. الأنا، الآخر، منشورات الزمن، الرباط، المملكة المغربية، العدد 43، 2014، ص 86.

8 عمرو عبد العلي علام، الأنا والآخر، الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلي في الفكر الإسرائيلي المعاصر، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ط1، 2005، ص12.

9 السيد عمر، التأصيل النظري للدراسات الحضارية الأنا والآخر من منظور قرآني، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2008، ص152.

10ينظر:عز الدين الخطابي، علاقة الذات بالآخر بين النظورين التأويلي والتفكيكي، مجلة رؤى تربوية، مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، فلسطين، العدد 32، ص69.

الآخر فجاء فيه: "أن الآخر خلاف الأول.. الليث: الآخر والآخرة، نقيض المتقدم والمتقدمة، والمستأخر نقيض المستقدم، والآخر بالفتح: أحد الشيئين وهو اسم على أفعل، والأنثى أخرى، والآخر بمعنى غير، كقولك رجل آخر وثوب آخر"[11]أي لهما نفس المعنى لغويا؛ فهما المخالف والمتباين ويطلقان على كل شيئين يختلفان اختلافا تاما أو جزئيا، أو حتى مكانيا وزمانيا، لكن في الدلالة المعجمية للغير (Autrui) في اللغات الأوروبية ذات الأصل اللايتني خاصة، نجد أنها مشتقة من الجذر اللاتيني (TER _AL) الذي يعني الآخر؛ "فالآخر (l'autre) ليس هو الشخص نفسه، أي هو شخص آخر غير الذات، والخارج (Ailleurs) والأجنبي والمختلف وما ليس أنا أو ذاتي أو نحن أو الشبيه أو المماثل أو نفسي.[12] يظهر جليا من هذه الدلالات اللغوية والمعجمية أن الآخر فهو المختلف عن ذاتي بشكل عام، تبعا للإطار المرجعي للمجتمع، حيث يكونوا بالقياس إلينا آخرين. فهم من ناحية آخرون بالقياس إلى الذات الفردية أو الجماعية، أي مختلفون ومتمايزون عنها من حيث الوجود والأفعال والملكية. والآخرون هم كذلك، من ناحية أخرى، يتحددون بالقياس إلى الأقارب، الذين لا يشاركون الذات نفس الانتماء الثقافي والحضاري،[13] فالآخر يحتمل إذن: ثلاثة معان بالقياس إلى الذات (الأنا) أو الجماعية الـ (نحن).

- فهو أولا المستقل وجوديا . جسميا ونفسيا، عن الأنا، (أي أنه من ليس أنا).
- وهو ثانيا من لا علاقة قرابة من بعيد أو قريب تربطني به (أي أنه ليس قريبا).
- وهو ثالثا: من يختلف عني ثقافيا أو عرقيا (أي أنه من ليس الـ (نحن).[14]

هذا التعدد المرجعي للآخر والذي كرسته الدلالات المشتركة لغويا واصطلاحيا، يتحدد في جميع الأحوال بمن ليس الذات وليس الأنا، وليس الأقارب، وليس النحن، ويساهم هذا "الليس" المجرد في تشخيص فرد أو جماعة تُعتبر آخر مختلفة عن الذات نفسها، ومع "ذلك يبقى أن الذات ليست ذاتا إلا بما هي مختلفة عن الآخر، مثلما أن الآخر ليس آخر إلا بما هو مختلف عن الذات، ولا يمكن إدراكه إلا في إطار علاقة "ثنائية" الأنا/ الآخر.[15]

11 ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، الطبعة 2، 2003م، الجزء 4، ص 12.

12 P.Robert, Le petite Robert, Le robert, Paris, 1982, p137.

13 ينظر، حنفي مصطفى، مقدمات فلسفية للحديث عن الغيرية، أعمال ندوة خطاب الغيرية، النظرية والتطبيق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، المغرب، يونيو 1997، ص 26.

14ينظر: محمود هيام عباس، الغيرية في القرآن الكريم دلالتها وعلاقتها بالآخر، مجلة البحوث والدراسات الشرعية، أكتوبر 2013، م2، ع 15، ص51.

15 عبد النبي ذاكر، الصورة.. الأنا والآخر، ص 86

حيث سيشكل العالم والوجود فضاء اللقاء مع الآخر والتواصل معه، وستتبلور هذه الطروحات أكثر في حضن الممارسات الفلسفية والنقدية، حيث سيُطرح سؤال "الآخر" خاصة "الديني" منه باستمرار باعتباره إشكالا وجوديا معاصرا يستدعي البحث والدراسة والتدقيق.

2 . قواعد القبول أو الكراهية

إن القواعد التي أعترف بموجبها بالآخر، أو في الواقع بنفسي، ليست ملكي وحدي. إنها تفعل فعلها بقدر ما هي اجتماعية تتجاوز أي تبادُل ثُنائي. سيجادل بعضهم دون شك، وأن لابد من أن توجد القواعد أولا لكي يصبح الاعتراف متاحا، وهناك بالتأكيد صحة في هذا الإطار، لكن من الصحيح أيضا أن بعض الأنواع المعينة من الاعتراف تؤشر موقع خروج عن أفق المعيارية وتستدعي إقامة قواعد جديدة ضمنيا.[16]لأنه إذا كان من الضروري اللقاء بيني وبين الآخر فإن الإطار المعياري ضروري أيضا، ولذلك لن ينفع "أن نُسقط فكرة الآخر في اجتماعية القواعد وندّعي أن الآخر حاضر في القواعد التي بها يُمنح الاعتراف ببساطة. يثير تعذر الاعتراف بالآخر أزمة في القواعد التي تتحكم في الاعتراف، أو الحصول عليه إلى إخضاع الأفق المعياري الذي يقع الاعتراف داخله للتساؤل، فإن هذه المساءلة تكون جزء من رغبتي في الاعتراف وهي رغبة لا تجد ما يشبعها ويؤسس تعذر اشباعها"[17] لأن الذات والغير: مكونان اثنان، وبالفعل إذا ما وحدنا أحدهما مع ذات أخرى، فأنا الذي سأغدو "غير" كما أظهر له. فكل مفهوم يحيل إلى مشكلة، وإلى مشكلات لن يكون له بدونها معنى، والتي لا يمكن أن تُستخرج أو تُفهم إلا مع التقدم الحاصل في حلها.

ويذهب فوكو Michel(Foucault) داخل دراسته حول الانهمام بالذات، إلى أن الاعتراف بالذوات الأخرى يتطلب إقامة علاقة سياسية "من الذات إلى الذات"[18] إذ وجب توفر الشروط التي تجعل إدراك الذات ممكنا؛

16 ينظر: جوديثبتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة: فلاح رحيم، إصدارات جامعة الكوفة، دار التنوير للنشر، لبنان بيروت، ط1، 2014،صص67، 68.

17جوديثبتلر، الذات تصف نفسها،ص 68.

18لكي نوضح القيمة المهمة التي حظي بها الاهتمام بالذات في الماضي؛ بما هو تجربة فلسفية وحياتية ارتبطت بمجموعة من التمارين، وتفاعلت مع مجموعة من الممارسات والقيم والمجالات كالطب والشيخوخة والموت.. وغيرها. فالممارسات المرتبطة بالذات والانهمام بها تفاعلت مع الطب بصيغ مختلفة، فنستدعي الفلسفة كما نستدعي الطبيب في حالة المرض، ذلك أن ما تقوم به الفلسفة لصالح الروح هو نفسه ما يقوم به الطبيب لصالح الجسد، باعتبار أن الطب والفلسفة ينتميان لنفس الفضاء، في الغاية العلاجية المرتبطة بعلاج الذات وإبراءها، كما تبلورت مفاهيم مشتركة بين المجالين كالهوى والعشق والانفعال والألم والعصبية حيث تم النظر إليهم كأمراض طبية روحية. يراجع: ميشيل فوكو، الانهمام بالذات، وجمالية الوجود وجرأة قول الحقيقة،تقديم وترجمة: محمد أزويته، منشورات أفريقيا الشرق، ط1، 2015،صص 14، 15.

على الرغم من أن هذه الشروط تقع خارج الذات نفسها، لكنها تمنحها القواعد المتاحة التي بواسطتها يتم الاعتراف "لأنني كذات راغبة أشتق من هويتي رغبتي، على اعتبار أنها تظل مستورة لأبعد حد، ولا تتقدم إلى السطح بوضوح، إلا من خلال علاقة منتظمة مع الآخر، (موجه، معترف له، محلل) في صيغة حوار داخلي غير محدد وبصوت خافت. إن ما يقيني هي الاضطرابات التي تجتاحني والقلاقل التي تخترقني....كل ذلك متولد بافتراض عن رغبة مجهولة بإفراط، وسأنجح حقيقة في مساءلتها عبر بسطها داخل خطاب موجه إلى الآخر الذي يناسبه"[19]فالذات باعتبارها كائن راغب تتموقع تحت التبعية والخضوع، باعتبار الرغبة في الاعتراف بالآخر تكون مرهونة بطلب اعترافي به، مرهونة بآخر يعمل على إثارتها مثل مصباح يستهويني ويجذبني، كما يعلق فوكو.[20] إن الذات قد تعجز عن إدراك نفسها، أو أنها لن تعترف بهذا الغير إلا داخل إطار القواعد التي أتيحت وحددت لها سلفا، ويتغير السؤال الأنطولوجي في خضم ذلك "من أنا؟" و"من تكون أنت؟" إلى سؤال: "كيف يجب عليّ أن أعاملك؟" مادام الآخر لا يظهر لي، ولا يشتغل بوصفه آخر بالنسبة لي، إلا ضمن إطار أستطيع ضمنه أن أراه وأفهمه في انفصاله وخارجيته. وهكذا فبالرغم من أني قد أفكر في العلاقة الأخلاقية بوصفها ثنائية، أو بالأحرى سابقة على الاجتماعي، فإني لا أقع في قبضة مجال المعيارية فحسب ولكن في إشكالية القوة عندما أتقدم بالسؤال الأخلاقي المباشر والبسيط "كيف يتوجب عليّ أن أعاملك؟" إذا كان من اللازم أن تخرج "الأنا" و"الأنت" إلى حيز الوجود أولا، وإذا ما كان الإطار المعياري ضرورياً لنشوئهما ولقائهما، فإن القواعد لا تعمل على توجيه سلوكي فحسب ولكنها تقرر النشوء الممكن للقاء بيني وبين الآخر[21]وفي غمرة اللقاء لو استطعت أن أفهم ذاتي بصفتي من سيمنح الاعتراف للآخر، فإن الاعتراف سيصدر مني في اللحظة التي أدرك فيها أن القواعد أو الشروط التي سأمنح بموجبها الاعتراف تخصني وحدي.

3 . تمثلات صورة اليهودي في الروايات العربية المعاصرة

أدى وجود العديد من الأديان السماوية في الدول العربية إلى سريان مبدأ التعايش مع الآخرين، وقد أقر الإسلام ذلك في مبادئه منذ وقت مضى، حيث ضمن الحرية والكرامة والمساواة والأمان لمختلف الأفراد والطوائف الدينية التي لا تدين بالإسلام، وتعيش على التراب العربي أو بالقرب منه.

19ميشيل فوكو، الاهتمام بالذات وجمالية الوجود وجرأة قول الحقيقة،ص 30.

20 ينظر: المرجع نفسه، ص 31.

21 ينظر: جوديثبتلر، الذات تصف نفسها، ص 69.

كما أن النتاج الروائي يستمد روحه من عمق المجتمع الذي يولد منه، فإن الروائي حينما يبادر إلى كتابة رواية أو قصة فإنه لا ينطلق من فراغ، بل يكون محملا بالزاد المعرفي والانعكاس الثقافي والاجتماعي والسياسي الذي يوجه رؤيته الأدبية ليعيد تشكيلها ونحتها بين دفتي رواية بأبعادها الحديثة والمعاصرة. والروائي المعاصر عموما والعربي خصوصا يعيش عصر المتناقضات والانحياز المفارقة بين الذات والآخر، غير أن الثقافة الغربية تمكنت من عبور هذا المنعطف لفسحة التآلف والتعايش مع الآخر بعد سلسة الحروب والصراعات التي خاضتها على كل الأصعدة، أما العالم العربي فيكتنفه حالة من الصراع الداخلي لاصطدامه بالآخر على الغرب المسيحي، بل ويتعدى هذا الصراع بين أبناء الحضارات المختلفة التي تعاقبت على الأراضي العربية وما خلفته من مفاهيم تاريخية وقومية رغم مزامنتها لديانات سماوية سمحة متوالية.[22]

والظاهر أن عوامل ثقافية وسوسيو اجتماعية ومعرفية عديدة قد برزت للوجود، مع تطور خطابات "النسوية" و"ما بعد الاستعمار"، و"الجنوسة"، بالتوازي مع استشراء ظواهر الأقليات المهاجرة، وبروز شرائح اجتماعية منبوذة من قبل الحضارات المعاصرة، ممثلة في السود والملونين والمدمنين، ومرضى الإيدز، والغجر، والمثليين، والجماعات الأصولية، والخلايا الإرهابية، والتي أفرزت منهجا نقدية تشكل ونمى في أحضان فلسفة الاختلاف، وسيجعل من مقولات: "الغيرية" و"التذاوت" و"صورة الآخر" و"التمركز" و"الهامشي" ومن ثنائيات: "الأنا" و"الهُم" و"الأصل" و"القناع" و"الذكر" و"الأنثى" و"المسلم" و"المسيحي" و "اليهودي" و"الأسود" و"الأبيض" و"الأهلي" و"الأجنبي" و"الشرق" و"الغرب" و"التسامح" و"العنف"....، وغيرها من المفاهيم والثنائيات الواصفة للآخر والمشخصة لصلات التفاعل مع الغير، مثار الدراسات والبحوث، وموضوعات الساعة الراهنة، وقد انعكست الأوضاع الآنفة الذكر على الأدب وعلى الرواية باعتبارها ملحمة العصر الحديث، فظهرت روايات تعبر عن الانبهار بالآخر (أوروبا) تبنت رؤية الذات للآخر كرواية الحي اللاتيني لـ "سهيل ادريس" ورواية "عصفور من الشرق لـ "توفيق الحكيم، ومع ظهور التيارات الفكرية الحديثة تطور مفهوم الآخر والغيرية إلى جملة من المجالات المعرفية والاصطلاحات النقدية . وعلى رأس الروايات العربية "التي كرست خطاب الاستعمارية عبر الذات والآخر نجد رائعة الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال، محققة بصمة فارقة في النتاج الروائي العربي الذي أفردت له المطابع حيزا كبيرا من الاشتغال والدراسة، وأطلقوا عليه اسم عبقري الرواية العربية، وهذا بسب الرؤية التي قدمها لنا الكاتب في شخصية "مصطفى سعيد" الذي تمثل على حد تعبير الروائي كل شخص عربي، هذا العربي الذي تنازعته الهوية بكل تاريخها المجيد والعاثر وما يناقض هذه الهوية بسب الآخر الذي استطاع أن يتغلغل إلى كينونة الذات

22عيسى بريهمات، ماجدة صادقي، الآخر اليهودي في قلبي أنثى عبرية لخولة حمدي، مجلة الباحث، الجزائر، العدد 7، 2015، ص174.

ووجدانها محققا شعورا يتضاد بين الجذب والنفور أو الانسلاخ والانتقام والتخبط بين هذين النقيضين حد الغرق أو الموت."[23]

أما على صعيد الروايات المغربية فقد تمثل صوره ومظاهر الآخر في الروايات المختلفة (واقعية، سياسية، تاريخية..) وكلها تجسد جدلية العلاقة بين الذات والآخر الديني المختلف، ولعل أهم رواية جديرة بالذكر: رواية "الأرض والدم" للكاتب الجزائري مولود فرعون؛ حيث تطرح شخصية " خالد بن طوبال صراعاتها المتولدة من الهوة الحضارية التي خلفها الاستعمار الفرنسي بالمنطقة، أما في المغرب فلم تختلف كتابات "عبد الله العروي" عن الطرح نفسه، وكذا رواية "العودة" لـ "ميمون حسيني " التي صورت جدلية العلاقة بين المغربي المسلم، والآخر الغربي المسيحي، وما ينجم عن هذه المفارقة من صراعات وتناقضات. وفي نفس السياق لم تختلف روايات تونس المعاصرة على النسج على منوال الجزائر والمغرب، حيث تناولت مشكلة الآخر وإن اختلفت في المضمون، فإنها وبشيء من الجرأة عالجت إبداعية صورة اليهودي بالنسبة للذات التونسية بظرا لأسباب تاريخية عملت على خلق فئة كبيرة من اليهود داخل التراب التونسي، خاصة جهة الشمال الإفريقي ومن بين الروايات التي تناولت اليهودي في الأدب الروائي التونسي نجد رواية رائحة المدينة لـ "حسين الواد" ورواية "في قلبي أنثى عبرية لخولة" حمدي[24]، حيث اقتحام الأنا العربية للآخر اليهودي وولوج عالمه أدبيا.

لقد استجلت هذه الروايات صورة الآخر اليهودي منفردة، وهو ما لم يسمح بتقديم صورة دقيقة "للشخصيات اليهودية" التي تعكس مسار التحولات التي مرت بها، في ظل التحولات الاجتماعية والسياسية التي كان لها دور مهم في هذه الصور المتعددة، وتنوعاتها من الريبة والانتقام والقلق إلى الاطمئنان والأمان له واعتباره صديقًا أحيانا، وعاشقًا في كثير من الروايات.

4. تطورات صورة اليهودي في النصوص الأدبية العربية

لقد راجت صورة اليهودي كما تجلت في الثقافة العربية منذ القدم، باعتبار اليهودي هو الذي يضمر الغدر والخداع والشر ومختلف صنوف الانتقام للعرب والمسلمين، وهي صورة نمطية ترددت في مختلف الأشعار والمرويات القديمة أيضا، ومرد ذلك هو اغتصاب الأرض الفلسطينية وبيت المقدس والأحداث التاريخية شاهدة على ذلك وخير دليل ما يحدث للشعب الفلسطيني من تقتيل وتعذيب دون التفريق بين

23ينظر: عيسى بريهمات، ماجدة صادق، الآخر اليهودي في قلبي أنثى عبرية لخولة حمدي، ص 175.
24المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.

الأطفال والشيوخ والرضع وغيرهم، لأن استلهام النص الروائي العربي للتاريخ "يعود في الأصل إلى حتمية الشعور بالانتماء إلى السلف، وفي هذا الصدد كانت الحاجة ماسة للبحث في ثنايا الماضي بغرض التعرف على هوية الذات، وعليه فإن المحاولات الروائية الجادة التي تسعى باستمرار إلى توظيف المادة التاريخية، تهدف إلى ربط الحاضر بالماضي، وقراءة الحاضر في ضوء الماضي، حيث ينبغي استحضار التاريخ لنؤكد على وجود ذواتنا"[25]

والنبش في المدونة التاريخية من أجل استجلاء مواطن التعايش والتسامح بين العقائد والديانات المختلفة، كأنه يمهد لحالة التطبيع التي بدأت تمهّد لها الحكومات العربية، لذا خلت الروايات العربية من ذكر الشخصيات اليهودية ولم يستمر الأمر لفترة طويلة، إذ حضرت الشخصيات اليهودية في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، وأخذت الصدارة، خاصة وقد كُتبت تحت تأثير اللحظات التاريخية، والأزمات السياسية، ومن ثم لمَ الخصام، خاصة أن شواهد التاريخ، أكدت على وقوف اليهود مع المسلمين في كثير من المعارك، على نحو مع حدث في معاركهم ضد الصليبيين، أو ضد المغول من قبل، لتقول إن الصراع "سياسي" وليس "عقائدي".

لكن ثمّة عامل آخر أسهم في سعي الكُتّاب إلى استدعاء الشخصية اليهودية، يتمثّل في المتغيّرات السياسية، وما أعقبها من تحولات في قبول الآخر، بعد تلك القطيعة التي أحدثتها حرب 1948، وما تشكّل من صورة في مجملها اعتبرت اليهودي مغتصبا للأرض، وسافكا للدماء، ومُدنسا للهُوية. ثم ما تلا هذه الفترة من علوّ صوت القومية العربية بعد ثورة 1952، وهو ما أحدث نقلة نوعية في الصراع، حيث عمدت القوميات العربية على اختلاف أيديولوجياتها إلى إقصاء الآخر(اليهودي)، وقد اتخذ إجراءات فعلية، عبر محاولات تهجير قصرية، في بلدان عربية كثيرة كما حدث في مصر والعراق، ثم في سوريا بعد نكسة 1967، حيث تم سلبهم الهوية وحقوق المواطنة،[26] لكن أهمّ نقلة في الصراع جاءت عقب نصر 1973، خاصة بعد الجلوس على طاولة المفاوضات، فأخذت الصورة تحتوي على النقيضين، ما بين الإفراط في القطيعة، كما جسدتها قصيدة أمل دنقل "**لا تصالح**"، والبدء في مد يد الصُّلح التي حذرنا منها أمل نفسه ولو "الدم.. حتى بدم**!**" –وهو ما لم يتحقق مع الأسف– تحت شعارات السّلام والتعايش وغيرها، ولعل أهم

25فريد الزاهي، الصورة والآخر،رهانات اللغة والجسد والاختلاف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة أبي رقراق للطباعة والنشر، المغرب، ط1، 2014، ص97.

26مدوح فراج النابي، تمثلات اليهودي في الرواية الرواية العربية من القطيعة إلى أوهام العيش المشترك في جيتوفاضل(قراءة في نماذج روائية)، مجلة الجديد، مصر 2019.

تحول حقيقي في علاقة الروائي بالآخر اليهودي، يتمثل في احتلال اسم اليهود صدارة عناوين الروايات، على نحو روايات: يوميات يهودي في دمشق (إبراهيم الجبين، دار خطوات، 2007)، وأيّام الشتات (كمال رحيم، وكالة سفنكس للآداب والفنون، 2008)، واليهودي الحالي (على المقري، دار الساقي، 2009)، مصابيح أورشاليم: رواية عن إدوارد سعيد (علي بدر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2009)، والسيدة من تل أبيب (ربعي المدهون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010)، وفي قلبي أنثى عبرية (خولة حمدي، دار كيان، 2013)، اليهودي الأخير (عبد الجبار ناصر، الدار المصرية اللبنانية، 2015)، واليهودي والفتاة العربية: "قصة الحب الخالدة" (عبد الوهاب آل مرعي، العبيكان، 2016)، ويهود الإسكندرية (مصطفى نصر، الدار المصرية اللبنانية، 2016)، وحمّام اليهودي (علاء مشذوب، دار سطور، 2017) وآخر يهود الإسكندرية (معتز فتيحة، دار اكتب، 2017) ماذا عن السيدة اليهودية راحيل؟ (سليم بركات، 2019)، واليهودي الأخير في تمنطيط (أمين الزاوي، 2012)، وغيرها من أسماء روايات أبرزت اسم ولفظ "**اليهودي**" على عتبتها الخارجية عكس ما كان من قبل حيث كانت تظهر الشخصية داخل المتن الروائي ضمن مجموعة من الشخصيات، أو تبرز في صورة المجاز على نحو ما جعل ممدوح عدوان عنوان روايته هكذا "أعدائي" (سنة 2000)، في إشارة إلى تحميلهم جرائمهم التي –مع الأسف– سعى الكثير من الكُتاب في الفترة الأخيرة إلى تغافل هذه الجرائم، بل تبريرها و التعاطف معهم، وإلصاق صفات أخرى (كالطيب، والإنساني) لليهود، ومن هنا ظهرت صورة اليهودي المثالي تلك الصورة الجديدة التي عملت الرواية اليهودية على لترويج لها. على عكس ما راج عنهم في الكلاسيكيات العالمية، مع "شكسبير" في تاجر البندقية، بجعل اليهودي مرابيا ومقامرًا، وألصق به كل صفات الشر.[27] بل الغريب أيضا أن هذه الصورة لم تختلف عمّا راج عن اليهودي في المرويات الغربية، فكما يقول هاني الراهب إنه حتى بداية القرن التاسع عشر كان اليهودي يصوّر في القصص الإنكليزية، إما على صورة "شايلوك أو اليهودي التائه" وفي حكايات ألف ليلة وليلة، ألصقتْ لهم الليالي الكثير من الصفات التي اشتهر بها اليهود في العادة، كالتجارة وامتلاك الأموال، وامتهان الطب، لذا تشدّد سهير القلماوي على شهرة اليهود في حب المال: "هنا نجد اليهود ممجدين كسائر الصالحين لا فرق بينهم وبين المسلم في مخافة الله، والقاص هنا يسميهم بني إسرائيل بينما هو يدل عليهم بلفظ اليهود دائما في غير معرض الكلام عن صالحيهم، واليهود لا يظهرون خيرين في الليالي إلا في هذا الجزء الخاص بيهم، ولكن العجيب حقا أن شهرة اليهود في حب المال واتصالهم بالمعاملات المالية لا تحتل مكانا لائقا بشيوعها، والعداوة بين المسلمين واليهود غير موجودة في الكتاب (تقصد ألف ليلة وليلة) فهم لا

27المرجع السابق نفسه.

يكادون يذكرون وإن ذكرو فليس ليهوديتهم أي خطر أو شأن. أثر اليهودية في الليالي لم يكن عن طريق الأشخاص وإنما عن طريق تسرب طائفة من أخبار بني إسرائيل عن صفات العالم الآخر أو من أخبارهم عن الزهاد والصالحين، ذكرت أنها عظات لا على أنها معتقدات وإيمان."[28]

❖ ختاما

خلاصة القول: إن المتأمّل لهذه الروايات العربية والنتاجات الأبية يكشف لنا عن اهتمام بالغ الأثر بالشخصيات اليهودية واستثمار صورها في النتاجات الأدبية، وربما هو تناول وصل إلى حد الإفراط، وتنوع بين صورتين اعتبار اليهودي شخصية حاقدة ومغتصبة خاصة إذا ما تعلق الأمر بالقضية الفلسطينية وتداعيتها من صرعات وأزمات، على الأرض المقدسة والهوية، أما الصورة الثانية فهي شخصية اليهودي الآخر الطيب والإنساني على اختلاف استحضار هذا الآخر. هذه التطورات ساهمت في نقلة نوعية على مستوى المضامين والموضوعات من جهة، وعلى مستوى نمط حضور هذ الشخصيات من جهة أخرى، في ظل حضور كمي وكثيف في الروايات العربية المعاصرة.

وبصفة عامة، فإن طبيعة الشخصية اليهودية إشكالية تستدعي المزيد من التحليل والتنقيب في ثناياها، بسبب علاقتها بذاتها، وعلاقتها بغيرها، وهذا مدعاة لنمط خاص من التعامل معها، بين قبولها أو إدانتها تتراوح القيم الأدبية وتنجذب بين الاندماج والانفصال أو القطيعة والاعتراف.

❖ قائمة المراجع

1. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، الطبعة 2، 2003م، الجزء 4.
2. أفاية محمد نور الدين، الغرب المتخيل، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ط1.
3. جوديثبتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة: فلاح رحيم، إصدارات جامعة الكوفة، دار التنوير للنشر، لبنان بيروت، ط1، 2014.
4. حمودة إسماعيلي، الأنا والآخر، نقد الفكر الاجتماعي، نقد الفكر الاجتماعي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2015.
5. حنفي مصطفى، مقدمات فلسفية للحديث عن الغيرية، أعمال ندوة خطاب الغيرية، النظرية والتطبيق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، المغرب، يونيو 1997.
6. سعد فهد الذويخ: صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي، إربد عالم الكتب الحديث، 2009.

28 سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، دار المعارف، مصر، ص 163.

7. سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، دار المعارف، مصر.
8. السيد عمر، التأصيل النظري للدراسات الحضارية الأنا والآخر من منظور قرآني، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2008.
9. عبد النبي ذاكر، الصورة.. الأنا، الآخر، منشورات الزمن، الرباط، المملكة المغربية، العدد 43، 2014.
10. عز الدين الخطابي، علاقة الذات بالآخر بين النظورين التأويلي والتفكيكي، مجلة رؤى تربوية، مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، فلسطين، العدد 32.
11. عمرو عبد العلي علام، الأنا والآخر، الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلي في الفكر الإسرائيلي المعاصر، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ط1، 2005.
12. عيسى بريهمات، ماجدة صادقي، الآخر اليهودي في قلبي أنثى عبرية لخولة حمدي، مجلة الباحث، الجزائر، العدد 7، 2015، ص174.
13. فريد الزاهي، الصورة والآخر، رهانات اللغة والجسد والاختلاف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة أبي رقراق للطباعة والنشر، المغرب، ط1، 2014.
14. محمد بهاوي: في فلسفة الغير، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2013.
15. محمود هيام عباس، الغيرية في القرآن الكريم دلالتها وعلاقتها بالآخر، مجلة البحوث والدراسات الشرعية، أكتوبر 2013، م2، ع 15.
16. مدوح فراج النابي، تمثلات اليهودي في الرواية الرواية العربية من القطيعة إلى أوهام العيش المشترك في جيتوفاضل(قراءة في نماذج روائية)، مجلة الجديد، مصر 2019.
17. مصطفى بيومي عبد السلام، وجوه الآخر قراءة في رواية الحب في المنفى لبهاء طاهر، تمثيلات الآخر في الرواية العربية، أعمال النادي الأدبي بالباحة، المملكة العربية السعودية، أكتوبر 2010.
18. ميشيل فوكو، الانهمام بالذات، وجمالية الوجود وجرأة قول الحقيقة، تقديم وترجمة: محمد أزويته، منشورات أفريقيا الشرق، ط1، 2015.
19. P.Robert, Le petite Robert, Le robert, Paris, 1982